الفصل الأول

المنظور

العنايةُ الإلهيّةُ ودوامُها

سـؤال: وهبنا الحق تعالى كل ما يمكِّنُنا مـن خدمة ديننا في وطننا وخارجـه، فبِمَ توصون لئلا ينقطع ما في هذه الخدمة من العناية الإلهيّة والبركة الربانية؟

الجـواب: أجـل، واضح أننا جميعًا على درايـة بذلك؛ فبينما كنا بالأمس نتخبط هنا وهناك، إذ به سبحانه يأخذ بأيدينا جميعًا إلى نقطة معينة بفضله وكرمه.

بـادئ ذي بـدء لا بـد أن نرى الأمر هكذا ونـدرك أننا في رحاب العناية الإلهية، لقد بَدَأ هذا الأمر بإخلاص وصدق على يد أناسٍ في حقبـة معينـة، وما يقـع علـى عاتقنا الآن ضرورةً هـو أن نتحمل هذه المسـؤولية التي ورثناها عنهم بمثل تلك الدرجة من الصدق وحسن النية، وأن نستمرّ فيها.

وبعـد أن حددنـا تلـك الحقيقة على هذا النحـو، فإنه من الأنفـع أن نذكـر بإيجـاز مَـا ذُكِر مرارًا ممـا يجب علينا وكُتِـب عنه في كثير

مـن الأماكـن حتى يومنا هذا؛ لئلا تنقطـع عنـا العناية والبركة الربانية المنهمرة من السماء زخًّا زخًّا:

١- علينـا أن نُقنـع أنفسـنا بأنه لا يد لنا في تلـك الأمور. أجل، علينا أن نقتنع ونؤمن من فورنا بأن كل شيء يتمّ بلطف الحق تعالى وبركتـه وعنايته، وأن نبرَأ من الشـرك، ونتنزّه عـن أوهام الأنانية التي تضخُّها أنفسنا في قلوبنا.

٢- وفوق ذلك، علينا أن نفكِّر "لو أننا لم نقم بهذا الأمر، فلربما مثَّلـه أناس أكثر إخلاصًا، ولَقطعت مسـافات أكثر بكثير مما قطعنا"، وعلينا أن نعلم: "أن عناية الحقّ تعالى لا تنعكس على خدمتنا للدين كمـا جـاءت من منبعها؛ لأنها تصطدم بما في شـخصيتنا وأنانيتنا من شرور وآثام فيرتفـع أثرها، فنتأخر كثيرًا عن النقطة التي كان علينا أن نبلغها اليوم".

كانوا يقولون لنا قديمًا: حين تقترب ممن نذروا حياتهم للحقيقة سيسألونك: "أخي، كم نفسًا أزهقت؟" أي كم إنسانًا حُلتَ بينه وبين عثـوره علـى الحقيقة؟؛ فعلـى الأرواح التي نُـذرت لله في عصرنا أن تحمل هذا الخوف في قلبها دائمًا حتى لا تنقطـع العناية الإلهية.

٣- كلمـا حقّقنـا نجاحًـا واضطلعنا بمهـامّ أكثر ينبغـي أن تزداد عباداتنا وتواضعنا بقدر ما حققناه؛ لئلا ننسـحق تحت أنفسنا فنهلك، كان الإمام الرباني السـرهندي يرى نفسـه دونَ الكلب. نعم، لا بد أن يترسـخ هذا المعنى في أرواحنا ليكون لسانَ حالنا على الدوام، كان

رسولنا ﷺ يدعو في سجوده صباح مساء منيبًا لربه: "**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**"(٣)، ولطالما كان يضرع خاشعًا بهذا الدعاء، فلنكرره، ولا يركننَّ امرؤ إلى نفسه ولو لحظة.

٤- علينا -كما سبق- أن نرى أنفسنا مصدر كلِّ عيب، وأنها العائق دون أداء الخدمة؛ وأن أي نجاح إنما هو فضل إلهي، فلننسب ذلك إليه ﷻ لا إلى أنفسنا. أجل، إن قولك: "عملتُ، وفعلتُ، ونفّذتُ، وأنجزتُ" منطق فرعوني، فهذا قارون قد ظنّ أن ما لديه من نِعَم إنما كان بعلمه هو: ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾ (سُورَةُ القَصَصِ: ٧٨/٢٨)، وكذا كلّ الفراعنة قالوا مثلما قال؛ أما الرسل جميعهم ورسولنا ﷺ فتمثّلوا قوله تعالى: ﴿**قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا**﴾ (سُورَةُ الأَعْرَافِ: ١٨٨/٧).

لاحظوا ما يقوله رسولنا ﷺ: "**فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**"(٤)، ولو أنَّ مليون إنسان اهتدوا على أيديكم، وبواسطتكم أنتم، فإن ظننتم أن هذا من عند أنفسكم، فربما تغدو هدايتكم لهم سببًا في دخولكم جهنم لا الجنة؛ إن البيان القرآني واضح في هذا، يقول تعالى: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (سُورَةُ الصَّافَّاتِ: ٩٦/٣٧)، فما لنا من الخير إن كان الأمر كذلك؟ ليس لنا سوى عجزنا وفقرنا. أجل، إن طريقنا إلى قدرته هو عجزنا،

(٣) مسند البزار، ٤٩/١٣؛ النسائي: السنن الكبرى، ٢١٢/٩؛ الطبراني: المعجم الصغير، ٢٧٠/١؛ الحاكم: المستدرك على الصحيحين، ٧٣٠/١.

(٤) صحيح البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٩؛ صحيح مسلم، الفضائل، ٣٤.

وإلى غناه فقرنا، فإن زاد شكرُنا له وواصلنا العمل في سبيله بشوق استمرت مظاهرُ الإحسان هذه ودامت.

٥- إن الإحساس والإدراك بأن الفضل والنجاح من عند الله يتجلى في جهدنا في الحديث عنه سبحانه، والتنافس في سبيله، وحذار من الرياء فإنه شديد الخفاء، ومنه مثلًا أننا نقول أحيانًا: "نحن ضعفاء، وهذا بتوفيق الله لنا وتيسيره"، ونستبطن في هذا القول الرِّياء بلا تصريح. نعم، يجب أن نتحدث عن الله سبحانه دائمًا، وأن نكون أكثر غيرة في هذا الشأن.

كل إنسان يحب ولده ويبادر بالحديث عنه إذا ما ذُكِر الأطفال، ونفعل هكذا إذا كان الحديث عن الكتابة والخطابة والفصاحة، ننتهز الفرصة لنتحدث عن أنفسنا، وهذا لا يليق؛ والحقُّ أن علينا استغلال كل فرصة لنتحدث عن الله دائمًا وأبدًا، فإذا ما جرى حديث في مكان ما عن الوفاء والأصدقاء الأوفياء، نسارع فنقول: ﴿**وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ**﴾ (سُورَةُ التَّوْبَةِ: ١١١/٩)، وكذا إذا كان الحديث عن رعاية الحق، وإحقاق الحقوق؛ فعلينا أن نغار عند الحديث عن الآخرين ونبادر بالقول: "إن أحقّ من يجبُ الوفاء بحقوقه ربُّنا الذي أوجَدَنا من عدم، ولم يجعلنا جمادًا بل جعلنا حيوانًا، ثم لم يتركنا حيوانًا صِرفًا بل رقّانا إلى درجة الإنسانية، ثم شرّفنا بلطفه إذ جعلنا مؤمنين، وليس هذا فحسب بل أورثنا خدمة الإيمان والقرآن"؛ فإذا ما نهض أحدهم وقال: "لقد تكلمتُ في برنامج عام، وتأثر الناس، وقالوا كذا

وكذا"؛ فلا بد أن نغضب غضبًا بالغًا، ونتلوى، ونتقطع ألمًا لأنّ ذلك المتحدث يتحدث عن نفسه وليس عن الله ﷻ.

أجل، إن كنا نريد أن نعرف منزلتنا عنده سبحانه فعلينا أن ننظر إلى منزلته في قلوبنا، علينا أن نراقب مدى صلتنا به، وطبيعة اتصالنا به دائمًا، ونستقصي ذلك ونتأهب له باستمرار.

والحقيقة أن علينا -إن كان اتصالنا بالله تعالى محكمًا- أن نستغلّ كل مدخل، ونبحث عن كل سبيل يؤدي إليه وإلى الحديث عنه؛ فلننقطع عن كل شيء إلا عنه، فنراه هو فحسب، ونعرفه ونفكر فيه ونراقبه، ونصحو وننام من أجله هو فحسب.

٦- الوفاق والاتفاق من أكبر وسائل جلب التوفيق والعناية الإلهية؛ إن الوصول إلى توفيق الله تعالى لا بد له من رأسِمال، ورأس المال هذا هو تحصين الوفاق والاتفاق في الوعي الجماعي، وعدم التشرذم والتفرّق؛ فعندما نتّحدُ نحظى بألطاف إلهية تفوق تصورات البشر مما "لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"، ونستطيع عندئذٍ أن نحمل من الأعباء ما هو أثقل من جبل قَافْ، وإذا ما كان العكس؛ بأن فسدَ وفاقنا وتفكّك اتفاقنا، ولم يبق معنا سوى بضعة نفر يتجمعون حولنا فإننا حينئذ مهما أظهرنا من جهد وبذلنا من طاقةٍ فلن نفلح، لأننا قد دمّرنا مصدر قوتنا الأساسي ونَسَفْناه نَسفًا طالما أننا لسنا على وفاق ولا اتفاق، فانقطعت العناية الإلهية عنّا؛ إذًا نحن مضطرون لتوجيه كل جهدنا وسعينا في تحصين الوجه

الـذي نغـدو بـه "بنيانًا مرصوصًـا"؛ ويؤكّد القرآن الكريـم لهؤلاء أن ﴿يَـدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (سُـورَةُ الفَتْحِ: ٤٨/١٠)؛ وإنني أحسـب حينئذٍ أن كل أنـواع اللطـف المنهمرة علـى الجماعة تأتي في بُعْـد وقدر يتعذر أن يحظـى به ولـو الأقطـاب والأغواث والأفـراد ممن لهم قـدرة على إرشاد البشرية جمعاء.

نعم، قضايا الإنسـانية شـاقة، والعبودية أشقّ منها، إلّا أن ضرورة القيـام بمهمـة عظيمـة في آخر الزمان لهي أشـقُّ من هـذا كله؛ وهذا هو مطلبنا؛ إنها أمانةٌ أَبَتِ السـماواتُ والأرض والجبال أن يحملنها، أي إننـا تحملنا "الأنـا" والإرادة، فلزام علينا أن نُكسـبهما قيمةً عاليةً فائقة، وأن نعززها باللجوء إلى حول الله تعالى وطوله لكي ننجح في غِلَابِ تلك الصعاب.

الفكر والحركة بمقوّماتهما الأساسية

سؤال: كيف يكون المرء حركيًّا فاعلًا باستمرار في خدمته للدين بشكل يلائم ظروف عصرنا هذا؟ وما الوصفة الناجعة ليغدو هذا الأمر أمرًا مستمرًّا؟

الجواب: يمكننا أن نلاحظ عدّة معانٍ عندما نتحدث عن الحركة أو العمل في خدمة ديننا، منها: عدم الوقوف عند حدّ، وعلوّ الهمة، والمضيّ قُدُمًا في تحويل الدنيا إلى جنان، وعدم السأم أو التخلي عن إكمال هذا الأمر حتى النهاية؛ أما غاية هذا العمل -وهي حلّ للُغز السؤال- فهي بلوغ منتهى الأفق الذي تحدثت عنه الآية الكريمة: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ (سُورَةُ الْحِجْرِ: ٩٩/١٥)، إنَّها عبادة الله تعالى بإخلاصٍ وصدقٍ مطلق ونشاطٍ لا فتور فيه حتى يأتي اليقين. أجل، إنَّ أداء ذلك والمداومة عليه حتى بلوغ ذلك اليوم الموعود هو هو الحركة والعمل الجادّ؛ وإذا كان العبد يفكر بكل إخلاص وصدق فيما يُطلَب منه من وظائف ومسؤوليّات على المستوى الشخصي والاجتماعي معًا، ويسعى للقيام بها -كما ذكرنا آنفًا- فقد أدرك المعنى الصحيح للحركة والعمل وعاشهما حقًّا؛ وإلّا فإنهم إن تناولوا المسألة من جانب واحد فقط، وجعلوا تركيا أعظم بلاد الدنيا

عمرانًا بما اعتادوا القيام به من خدمات مادية، ورفعوا راياتهم على مآذن جامع السلطان أحمد، فإن ذلك الأمر سيرجع -من حيثُ وَصلَ- إلى ما كانَ عليهِ؛ إنهم وإن أنقذوا العالم في انطلاقةٍ واحدةٍ، لكنّهم عَلِقوا في شباكِ الثقة بأعمالهم، لذا أجزِمُ أنَّ ما فعلوه لا قيمة له في نظر الحقّ.

والشطر الثاني من السؤال: "كيف يدوم هذا المعنى وتلك الروح؟" جوابه يستند إلى ما يأتي:

١- التفكر: أجل، يبدو أن أكبر عيوبنا بلا شك الغفلةُ والبعدُ عن كلّ أنواع التفكر والتأمّل؛ بل إنّنا في سرائرنا نعيش بقلب ميت محروم من المراقبة الذاتية.

٢- رابطة الموت: هي ذكر الموت والتفكُّر فيه دائمًا؛ فرابطة الموت تعني الاستعداد كل يوم -نعم كل يوم- للقاء الله، فينبغي أن نزور المستشفيات ونعود المرضى، وأن نزور القبور ونتصور أنفسنا عظامًا نخِرة ونتذكر أن الدنيا فانية زائلة، وأن نكِدّ ونجدّ دأبًا لترك أثرٍ ما بعدنا كما قيل: "يفنى الإنسان ويبقى أثره"، وأن تفيض وتزخر حياتنا بالصالحات، انظروا إلى مفخرة الإنسانية ﷺ تجدوه -في آخر حياته السنيّة وقد دنا لحاقه بالرفيق الأعلى- راح يجهّز جيشًا لغزو بيزنطة، وولّى عليه الحِبّ بن الحِب أسامة بن زيد؛ وكان والده استشهد في غزوة مؤتة؛ وفي الساعات الأخيرة اشتدّ المرض على الرسول ﷺ،

فكان يُغمَى عليه، فإذا أفاق: "**أَنْفِذُوا بَعْثَ أُسَامَةَ**"(٥)، أسألكم بالله أهذا هو ما يشغل من يعاني سكرات الموت ويلقى منه شدّة؟ الأمر أعظم من ذلك عند رجل الدعوة؛ وهكذا فعل الفتى الذي سار على خُطَى سلطان الأنبياء ﷺ، إنّه السلطان "مراد خُدَاوَنْدِكَار"، ذلك العقل الفريد الذي أنجبته هذه الأمة، الشغوف في التأسي بمفخرة الإنسانية ﷺ، فقد اختتم حياته بمثل ما فعل ﷺ؛ هذا السلطان العظيم عندما سأله صاحباه المجاهدان "ميخال الغازي" و"أورانوس الغازي" في ساحة الحرب قبل أن يُسلم روحه إلى بارئها: "سيدي السلطان، أتأمرنا بشيء؟" أجاب بكلمات تسجل في التاريخ بحروف من ذهب: "لا تفارقوا صهوة الجياد، ولا تغمدوا سيوفكم!"، ولم يقل:"احملوني إلى بورصة، وادفنوني بها، واثأروا لي..." وما إلى ذلك. نعم، إنّ آخر كلامه في القضية التي استشهد من أجلها لَيتنفس فكرًا وحركة؛ وإنّ إحدى أمارات إدراك الإنسان لهذه النقطةِ الأفقِ أن يلقى الموت بنفس راضية، ويفرح به فرحه بالعرس أو العيد.

٣- الاستفادة الدائمة مما يرِد به الوعيُ الجمعي؛ لأننا قد ننهار معنويًّا، فعلينا أن نعْمُر ما خلّفه الانهيار والخراب بملازمة هذا الجوّ الجماعي المبارك؛ فربما لا تكفينا ولا تسعفنا عيوننا ولا آذاننا ولا أيدينا ولا أقدامنا للتطهر من سلبيات بيئاتنا الخاصة، أمّا حينما نضع أيدينا في أيدي إخواننا ونسمع بآذانهم ونرى بعيونهم، فسنبلغ ما لا تبلغه قوتنا وطاقتنا الشخصية.

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ٥٦/٢.

٤- مطالعة كتب تجعلنا في شحذٍ روحيٍّ دائم. أجل، تتبعوا هذه المسألة بدءًا من الحياة البهية للأوائل الكرام، وصولًا إلى الآفاق الفكرية لكثير ممن غدَوا نموذجًا يُحتذى به في هذا السبيل، وذلك بمطالعة حياتهم، وفهمها جيدًا؛ عسى أن نتعالى على مناخ الألفة والأنس الخانق، وجمال الدنيا الجذّاب.

٥- أن يتحمّل المرء لِزامًا وظيفةً ما بروح المسؤولية لتظلَّ الحيوية والنشاط غالبةً على شعوره بخدمة أمتنا، وحينئذٍ يتلاقَى كثيرًا مع من خلصت نيتهم لخدمة أمتهم؛ وأن يُقَوّم دائمًا ما أُنجز من أعمال وما سيُنجز، فيعايشها ويقوم ويقعد معها أسبوعَه كلَّه؛ ويتنفس الخدمة دائمًا دون انقطاع ولو لحظة، وحينئذ يبارك الحق تعالى له في عشقه وشوقه، أي يبارك له في حركته وعمله، وهذه الحقيقة أجلى ما تكون في الحديث القدسي: "**إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِذَا تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِذَا أَتَانِي مَشْيًا أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**"(٦).

والحاصل أن الفتية الذين يُناط بهم عمل بديع كهذا وينهضون به سيُدركون بالتأملِ القيمَ التي عليهم أن يستمسكوا بها، وسيتجاوزون برابطة الموت فناء الدنيا وزوالها، حتى إنهم سيرشدون الناس إلى الوجود الحقيقي داخل الزوال والفناء، ويشاطرونهم الحزن والكدر والفرح في كل مكان، وبهذا يغدون أُلُوفًا وقد كانوا آحادًا؛ إن أبطال الفتوة هم ممثلو الوفاء الحق، هم من سيُهرَعون للقيام بالخدمة في

(٦) صحيح البخاري، التوحيد، ١٥؛ صحيح مسلم، التوبة، ١، الذكر، ٢٠-٢٢.

فـرح وطرب، وسـيقدمون بطـولات أكثر فأكثر، وأعمـالًا تلو أعمال لإنشاء عالمهم الذي بُشّروا به قبل عدة قرون.

أسـأل الله أن يحرر أجيالنا وينقذهم بإحسانه وكرمه وعنايته، وأن يمدَّنـا ويسـدّدنا بقوته وحولـه في هذا الكفاح العظيم، وهذا السـبيل الـذي يفوق طاقتنا وقوتنـا، وأن يُديم هذا العمل بنا وبمن يأتي بعدنا من الأجيال؛ إلهي أسعِدْ من فوق الأرض ومن تحتها، وبشِّرْهم، وأقرّ أعينهم بإقامة دينك وحفظه.

التواضع والتفاني في خدمة الدِّين

سؤال: ساق الله خِدمات عظيمةً جدًّا لمن نذروا أنفسهم للدين في عصرنا، لكن قد يسوقهم عِظم شأن هذه الخدمات إلى الغرور، أو التشوف لشيء من الأجر، فبم تنصحون وما هو الواجب فعله في كيفية التعامل مع هذه المرحلة؟

الجواب: ثمة حقيقة أشار إليها مَن سنّ طريق الخدمة في هذا العصر للذين نذروا أنفسهم لها بقوله: "إنما نمهد السبيل لأولئك الكرام النورانيين"[٧]؛ فأرى بدايةً أن الصواب الالتفات إلى هذه الحقيقة؛ والأجدى والأنفع أن نتذكّر أمرًا آخر، وننظر إلى المسألة من خلاله. أجل، إن التمسك بهذه الدعوة العُلْوية والغاية المثالية السامية يتمثل في مراعاة حالها في الحاضر والمستقبل، والولوج إلى نفوس أكثر الناس فظاظة وقسوة وتمردًا وجفاءً وإلحادًا، والاهتمام بهم لتبليغهم إياها، ومكابدة المشقة في تحقيق ذلك. أجل، إن هذه المكابدة تحملنا وتحلق بنا إلى جو التسامح، وترقى بنا إلى اللين، فالعفو والصفح ثمّ الرحمة، وإلى أكثر آفاق الإرشاد بركةً وفيضًا حتى يفوز الناس بالنجاة السرمدية.

---

(٧) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: المكتوبات، المكتوب الثامن والعشرون، المسألة السابعة التي هي الرسالة السابعة، السبب الخامس، ص ٤٥١.

وأبرز الأداوت والأساليب المستخدمة قديمًا في هذا النسيج القدسي الذي حاولنا نسجه حتى الآن هي التسامح واللين والعفو والرحمة، بيد أننا لم نستثمرها وفقًا لخطة معدَّة، بل اقتفينا طريقًا يسير وفقًا لمجريات الحوادث، حتى وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم؛ وإن نهج الخدمة الذي يحيط بحياتنا إحاطة السوار بالمعصم قد يحمل للناس اليوم ولأجيال قادمة رسائلَ تنير لهم الطريق دون أن نقصد ذلك.

واليوم نشهد نفحات قدسية في خدمة أمتنا تنتشر من أفواه آلاف المتحدثين، فتَحُفُّ مناخَنا وتحصّنُ روحه؛ حتى إنّه لَتتحطم الموجات الضارة الشرسة، وتتهاوى الشهب، وتذوب تِباعًا؛ وطبَعي أن تسري على ما نحن بصدده قوانين الطبيعة، فهو كالبرعم ينمو ويتكوّن رويدًا رويدًا، ثم يأتي يوم تتلاحم فيه عُضَيّاته المترابطة؛ فتتّحد، وهكذا يتأسّس العمران المنشود في الأذهان.

أجل، إنّ الأوائل الذين تحمّلوا الشدائد وفّوا بِمَهمَّتهم الخاصة بالأمس وإنّهم اليوم أسلموا تلك الأمانة إلى مهندسي العصر وصُنَّاع الفكر، ثم رحلوا؛ وبينما تُختَارون لتشييد عمران اليوم وَفْقَ عالَمِيَّة بِنيتكم الروحية وفكرٍ وحركةٍ مصدرهما توجُّهاتكم العامّة أَرَاكم تُرْسُون دِعامات جسر يمتد إلى المستقبل، وستحمل الأجيال اللاحقة تلك الأمانة عنكم إلى محطة أخرى، فترى تلقائيًا وهي تنقل هذه الأمانة دعاماتِ ذلك الجسر، وتقول: "ما وُضعت هذه الدعامات إلا لهذا الأمر"؛ وهذا كما كان يقال للصحابة والتابعين وتابعيهم في زمن

الفتوحات: "فيكم من صحب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيُفتح عليهم، ثم يأتي زمان، فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيُفتح، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب صاحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيُفتح"(٨)؛ وأنتم أيضًا ستتبوّؤون مكانكم عند نقطة معينة، وسيُفتح عليكم بعون الله وفضله.

وفي جواب السؤال أؤكّدُ أنّا لسنا ندري، فربما يُعمَّر هذا الجيل طويلًا، ويمثل تلك المهمة بخصائصها في المستقبل، ومردّ تحقيق هذا كلّه إلى اللطف الإلهي ثم إلى سَعة صدوركم واستعداداتكم العامّة؛ فالتشوف للأجر هنا وبناء سلوكنا عليه خداعٌ محض، بل إنّ حديث النفس "أنا فعلت كذا، وقمت بكذا"، والتشوف لشيء من الأجر وإن صَغرَ لَيُقوّضان ركنًا من القواعد التي نرفعها من أجل غاية عظمى في المستقبل، حتى إن التشوف للأجر ربما يشدخ أرواحنا بمرور الزمن، وقد يحملنا على الأنانية والغرور أيضًا. نعم، قد يُحسَن الظن بنا ونُكلَّف ببعض المهامّ، لكن لا ينبغي لأحد قط أن يستشرف لمثل هذا التشوّف أو أن يخطر بباله، فتسلل فكرة كتلك إلى عقله خطوة خاطئة، فإن لم يُنِبْ ويتُبْ فَسَيَقَرُّ في قلبه هذا المعنى يومًا فيومًا، وتَتَتَابَعُ الخطوات الخاطئة، فيأتي يوم يطأطئُ فيه رأسه؛ لأنه خسر في وقتٍ هو أدعى للكسب، وسيخسر حقًّا، وإن مفكر عصرنا الكبير ورائد الإخلاص اليوم قد تصرّف بحذر عُجاب في هذا، وأشار إشارةً رائعةً إلى لطافته هذه فقال: "لقد أُقرئتُ كُتُبًا دون

(٨) صحيح البخاري، الجهاد والسِّيَر، ٧٥؛ صحيح مسلم، فضائل الصحابة، ٢٠٨-٢٠٩.

أن أعـرف... قـد وُجِّهتُ إلى القرآن دون أن أعرف... لقد سُـخِّرتُ لخدمة ديني دون أن أدري..."[٩].

أجـل، أن نكـون أفـرادًا عاديين في هذا الأمر أثمنُ شـيء عندنا، فخير لك وأقوَمُ أن تكون جنديًّا بسيطًا بباب الله دائمًا، وألا تنزلق إلى تشـوفات شـتّى، فقد يُكلَّفُ جنديّ بما يقوم به المشـير أحيانًا، وهذا شأنٌ من شؤون علمه هو ﷻ، ولا شأن لنا به قطعًا، أليس هذا ما قاله بديـع الزمان: "النفس أدنى من كل شـيء، والوظيفة أسـمى من كل شيء"[١٠]، "يا نفسي المرائية! لا تغتري قائلةً: إنني خدمتُ الدين، فإن الحديث الشريف صريح "**إِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ**"[١١]، فعليـكِ أن تعدّي نفسـكِ ذلك الرجل الفاجر، لأنـكِ غيرُ مزكّاة"[١٢]؛ "لا تَرَي نفسَـك مظهرًا لتلك المحاسـن وتلك الطيبات؛ فيا نفسي لا تقولـي: "إننـي مَظهر الجمال، فالذي يحوز الجمـال يكون جميلًا!"، كلّا إنك لم تتمثّلي الجمال تمثّلًا تامًّا؛ فلن تكوني مَظهرًا له بل مَمَرًّا فحسب، يمرّ بك الجمال ثم يزول عنك ولا يقرّ فيك"[١٣].

إنّ حَبابَ الماء يسـتقبل انعكاس أشعّة الشمس، هبْ أنه لم تكن شـمس فماذا سيسـتقبل؟ إذًا كلُّ هذه الجماليات مـن جمال الجميل سـبحانه وتعالى. أجل، فهذه الإشـارات مهمّة جدًّا، وبقدر عظمة ما

(٩) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **المكتوبات**، المكتوب الثامن والعشرون، المسألة السابعة التي هي الرسالة السابعة، السبب السابع، ص ٤٥١.

(١٠) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **سيرة ذاتية**، فترة آفيون، ص ٤٤٨.

(١١) **صحيح البخاري**، الجهاد، ١٨٢، القدَر، ٥؛ **صحيح مسلم**، الإيمان، ١٧٨.

(١٢) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة السادسة والعشرون، الخاتمة، ص ٥٤٣.

(١٣) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **الكلمات**، الكلمة الثامنة عشرة، المقام الأول، الملاحظة، ص ٢٤٨.

يحمّلنا الله سبحانه من مهمّات ووظائف يزداد تواضعنا ونكون أبعد عن التشوفات والمزاعم، هذا ما ينبغي؛ فالسلامة في الدارين مرجعها سلامة القلب فحسب:

أيـــــــها الحاجّ لا تذهبنّ بك الظنون
فـــــــلا فضةً ولا ذهبًا منك يطلبون

بل قلبًا سليمًا ﴿يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ﴾ (سُورَةُ الشُّعَرَاءِ: ٨٨/٢٦)"

يا لها من كلماتٍ بديعة تشير إلى هذه الحقيقة!

أجل، لا بد أن تُنقش تلك الحقيقة في أرواحنا، وعلينا -كأُناسٍ عاديين- ألا نخوض غمرة التشوّفات الزائدة عن الحدّ لا باسم الجماعة ولا باسمنا، ولنحرص على أن تكون خاتمتنا في أجواء تلك المبادئ.

رُكن الاستغفار في الخدمة

سؤال: أين منزلة الاستغفار من الأعمال التي يتمّ إنجازها لخدمة الدين؟

الجواب: قد يقع عند أداء وظيفةٍ ما خدمةً للدين ما لا يرتضيه الله، فيعرقل الذنب هذا الأمر مرارًا؛ لذا قرن القرآن الكريم الفتح بالاستغفار؛ فقال تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۝وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (سُورَةُ النَّصْرِ: ١١٠/١-٣).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما صلَّى النبيُّ ﷺ صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلّا يقول فيها: "**سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي**"[١٤].

وهكذا فهذه الروح روحٌ نبويّة، ونقيضها روح فرعونيّة تغتبط وتبتهج وتنتشي فرحًا بالنجاح والانتصار، ولا شك أنَّ الروح الفرعونية تعيق السلوكيات الإيمانية؛ من ذلك أن شعور راكب السيارة أو الطائرة بالصَّلَف والغرور وانشغاله باللهو والمرح وهو

(١٤) صحيح البخاري، تفسير القرآن، ١١٠؛ صحيح مسلم، الصلاة، ٢١٩.

متوجه إلى مكانٍ ما لخدمة الدين يُعَدُّ من الهواجس الشيطانية لا الرحمانية. أجل، فهذه الخِدْمات العارية عن الاستغفار والمراقبة هي أساس التعثر وانغلاق السبل، وأجزم أن هذا هو سبب الأزمات التي نعيشها.

أجل، هذه مرحلةٌ دقيقة، فعلى المجتمع وخاصة رجال الخدمة أن يقيّموا أنفسهم فكريًّا وعقديًّا وعمليًّا وعاطفيًّا؛ ولا بد من إصلاح كل ما فسد، وتقويم البنية الروحية جميعها لترميمها أو إعادة إنشائها؛ وبعد عملية جراحية خطيرة على هذا النحو سترتعد أعماق كلّ منا عند كل كلمة يتلفظ بها وكأنه صائم أفطر بماء عذب فجرى الماء في عروقه، وسيرقى إلى مرتبة عالية حتى إنه يستغفر الله لصلاة أداها في خشوع، إذ لا أحد يعرف أين رضا الله تعالى: أفي إقامة الصلاة على هذا النحو أم بشكل آخر؟ المهم هو حضور القلب بين يدي الله، والوعي بأننا نقوم بعمل جد عظيم تحصّنًا من الشيطان والغفلة الشيطانية؛ فالمسألة ليست مسألة إحساس فقط، ولست أريد أن أقول: "الأصل عدم الإحساس بأي شيء قط"، بل أقصد أنّنا إن عجزنا عن إدراك لطائف الاستغفار والرقي بها في كل نجاح ليتحقق التكامل بين المجتمع والكمال الشخصي، فهذا نوعٌ من الغفلة، والله لا يحب الغافلين؛ حتى إن قولنا "ما أجمل ما يجريه الله تعالى على أيدينا" قد يُعدّ أيضًا نوعًا من الشرك الخفي، وكلما تعمّق استغفارنا أمكننا التحصُّن من أضرار خواطر مهلكة كهذه.

أمر آخر: من كفران النعمة وسوء الأدب مع الله تعالى أن نقول ونحن نتصدى لمصائب حلّتْ بنا: "لماذا حلّت بنا هذه الأمور؟ ماذا فعلنا؟!"؛ فلنبادر بالاستغفار لنهزم خواطر وهواجس كهذه حين تدب فينا لنقطع الطريق عليها؛ يا تُرى هل تلمسنا الخطأ في أنفسنا في كل هذه الأحداث؟ وهل اتخذنا من أنظارنا كشّافًا نفتّش من خلاله جوَّانيّتنا باستمرار؟ ألم يأمُرنا القرآن الكريم بمحاسبة أنفسنا قائلًا: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ (سُورَةُ الْمَائِدَةِ: ١٠٥/٥)؟ إذًا لم لا نراقب جوَّانيتنا امتثالًا لقوله ﷺ: "**إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**"[١٥]، ولم لا نفكّر فيما يدور بخلدنا؟

ولو أُغفِلت هذه الأمور لبرزت الأنانية وانخدع الإنسان بما حقَّق مِن نجاح ولَنسي ربّه وعنايته. أجل، إنه سينخدع لأن تلكم الأشياء هي وساوس الشيطان التي همس بها في أذن الإنسان ولبّس عليه الحق بالباطل؛ انظروا إلى رسول الله ﷺ يدخل مكّة فاتحًا، حتى إن جبينه المبارك كاد يلامس مقدمة الرَّحلِ في تواضع جمّ[١٦]؛ فلنطلب رضاه تعالى في كلّ شيء نفعله.

أجل حسبنا رضاه سبحانه، وما دام الأمر كذلك فلنجعله أصلًا في كلِّ أمورنا، ولا بد أن يكون هذا هو الأساسَ والهدف، وأن تتوجّه كلّ سلوكياتنا وخواطرنا إليه ﷻ.

---

(١٥) صحيح مسلم، البر، ٣٣-٣٤.

(١٦) ابن هشام: السيرة النبوية، ٤٠٥/٢.

كيمَا يستمرُّ اللطف الإلهي

سـؤال: كثيرًا ما يقال إننا إذا ما قارنّا أحداث اليوم بما مضى من أحداث على مدى التاريخ، فسنجد أننا نحظى بأنواع وأنواع من اللطف الإلهي؛ فما هي واجباتنا جميعًا وفرادى ليدوم علينا هذا اللطف الإلهي؟

الجواب: إن كثرة الحديث عن الرحمات الربانية التي تتنزّل علينا زخًّا زخًّا يدخل في باب ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (سُورَةُ الضُّحَى: ٩٣/١١)، علينـا أن نذكرهـا، لِـمَ لا ونحن أبنـاء مرحلة مجدبـةٍ وأراضٍ قاحلة متشقّقة أقفرتْ من الرُّوحانيات، وأبناءُ عصر نتلوّى فيه ظمأً إلى قطرةٍ مـن غيـث المعنويات؟! لقـد لطف الله بنا ورعانـا، فأخرجنا من تلك الأيام القاحلة إلى هذه الأيام، بيد أن إحاطة عناية الله بنا ولطفه وكرمه شيءٌ، ودوام ذلك كلّه شيءٌ آخر.

إنني أرى أن الاسـتقامة على النهـج القائم بلا نكوص إلى الوراء ولـو خطوة هـي أول ما ينبغي أن نقوم به لتسـتمر هذه النعم وتدوم؛ مثـلًا عندمـا نضبط قنوات المذياع ونعثر بدايةً على القناة التي نبحث عنهـا، نتوقـف عندهـا، ولا نحرك المؤشـر على القنـوات الأخرى؛ قـد نحركه علـى القناة حركة خفيفة يمنة ويسـرة لنعثـر على أوضح ذبذبـة؛ وهكذا مـا نحن فيه تمامًـا، فعلينا من منظور دائرة الأسـباب

أن نحافظ على الخصائص التي تنزلت بسببها هذه النعم، وذلك مثل الهمّ والدعاء والفكر، ولا تكفي المحافظة عليها، بل علينا أن نعززها ونرقى بها أكثر من ذلك؛ هذه هي أول خطوة لاستدامة اللطف والإحسان المنزَّلِ علينا.

أمر آخر: علينا أن نسعى لبلوغ الذروة في الإخلاص والتقوى والزهد والقرب من الله فيما نضطلع به من أعمالٍ، وأن نسعى إليها ما حيينا، وإلا فلا مفر ألبتة من أن تحيط بنا غوائل "الهجمات الست"(١٧) إحاطةً تامّة إذا ما مُنِيَ روحُ الفكر والحركة بالضمور، وعندئذٍ قد نقع في شراك إحدى هذه الغوائل التي تهوي بنا في الدوائر الفاسدة العاملة لحساب بعضها المتصلة فيما بينها أيّما اتصال، فنهلك؛ فبين هذه الجراثيم الفتّاكة شبكة اتصال عجيبة جدًّا، إذا دخل أحدها الجسمَ وحطّم مقاومته أرسل من فوره إلى غيره من الجراثيم إشارة: "هيا تعال أنت أيضًا!"؛ وعلى هذا فهي تبدأ الهدم والتخريب في البنية التي تدخلها من خلال تكوين شبكة اتصال معنويّة فيما بينها وكأنها تَبْرُقُ إلى بعضها، وتشكل دائرة فاسدة.

وللتوضيح أكثر نقول: جرثومة الخوف عندما تغزو بنية الإنسان قد تستدعي جرثومة حبّ الراحة والدَّعَة، وإذا ما ضعفت مقاومة الجسد أكثر قد تتلقى جرثومةُ حبِّ الشهرة الإشارةَ، فتنقضُّ على الجسم فورًا؛ فيتعذر على الجسد استعادة طاقته مرةً أخرى

(١٧) رسالة "الهجمات الست" للأستاذ بديع الزمان سعيد النُّورْسِي، يبين فيها كيف يمكن للإنسان سد طرق الدسائس الست لشياطين الإنس والجن، وهي: حب الجاه والشهرة، والخوف، والطمع، والعصبية، والأنانية، وحب الراحة والدعة. (بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: **المكتوبات**، المكتوب التاسع والعشرون، القسم السادس).

ما لم تدركه عناية الله! أجل، لو لم يكن هناك لطف وعناية خاصة، لاستحال النهوض ثانيةً بعد هذه المرحلة.

إذًا علينا أن نسعى لنحافظَ على تنعمنا بلطف ربّنا، ولنبلغ مراتب أعلى من مرتبتنا الحالية قائلين: "هل من مزيد؟"، لئلا نُمنَى بتلك الهجمات والكروب.

أجل، كلُّ فضلٍ يستوجبُ شكرًا من جنسه، فإنعامُ اللهِ علينا بالإيمان وبالوعي بمهمة إرشاد الآخرين إليه -وتلك هي غايتنا في الحياة كما أشرْنا مرارًا- يقتضي شكرًا من جنسه؛ فبهذا الشكر وباستمراره يستمرّ اللطف والإنعام، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ (سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: ٧/١٤)، لاحظوا يقول: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ لكن لم يقل في مقابله: "وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّ كُفْرَكُمْ"، بل قال: ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾، فبينما كان سبحانه يدعونا إلى الصراط المستقيم، أخذ يذكّرنا بطريق إحراز النِّعم والوقاية من العذاب؛ فشكرُ نعمة الإيمان يتحقق بإرشاد الآخرين إلى الإيمان عسى أن نحظى بِنِعَم جديدة، وفي هذا المقام نسأل الله أن نزداد يقينًا، وأن نحظى بالقرب منه أكثر، وكان الأستاذ النورسي عندما يفسّر آية: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (سُورَةُ البَقَرَةِ: ٣/٢)، يعمِّمُ، فيقول: كما أن للمال زكاة فإن للبدن والذكاء والذاكرة والمحاكمة العقلية زكاة، حتى إنّ للخِطاب زكاة تلائمه أيضًا[١٨]؛ فأعطِ كلّ ذي حقٍّ حقَّه، وقابل كلَّ نعمةٍ بشكرٍ مِنْ جنسِها كي يتتابع إغداق تلك النعمة عليك.

(١٨) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: إشارات الإعجاز، ص ٥١.

منهـج آخـر لا بد من اتّباعه في هذا الشـأن، وهو مراقبة جوّانيتنا بالتناصـح فيمـا بيننـا كمـا كان الصحابة الكـرام يفعلون، فلـو تأمّلنا عصر السعادة، لرأينا كلمات رجوليّة جليّة صريحة تناصح بها سادتنا الصحابـة الكرام، فإذا اتخذناها نموذجًا فبوسـعنا أن نطبق ذلك فيما بيننـا وفـق درجاتنا؛ أي يمكن أن نُوعِزَ إلى الآخر بأن يقوّمنا، فنقول: "إذا رأيتنـي يـا أخـي علـى خطإٍ، فخذ بيـدي وانهض بـي من عثرتي وحذرنـي، فإننـي لـن أتكبّر على قبول هـذا". نعم، يمكننـا أن نختار شخصًا يقوّمنا إذا ما اعوجَجْنا، ومن المهم هنا ملاحظة المعيار الذي عبر عنه الأستاذ بقوله "دون هتك الستر".

أرى أنه من الضروري لمن يتضرّع ويتبتّل قائلًا: "إلهي، لا تكلني إلـى نفسـي طرفةَ عين" أن يفتح هذا البـاب لأصدقائه، ويعدّ التوجيه والنصـح "أمرًا بالمعـروف ونهيًا عن المنكر"؛ فكل من صلاح الدين الأيوبـي ونـور الدين زنكي كان يسـتمع لنصح شـخصٍ مـا، وكان السلطان سليمان القانوني يستمع لنصائح أبي السعود أفندي... فمن نحـن حتـى نغلق الأبواب دون نصائح كتلـك، ونصدّ من يوضّح لنا عيوبنا؟

والحاصـل أن الله سـبحانَه لـن يغيّر مـا بنا حتى نغيّر ما بأنفسـنا، وللقيـام بهـذا وتحقيقـه لا بُدَّ لنا من إخوةٍ أوفيـاء يؤازروننا لمواجهةِ أنفسنا الأمَّارة بالسوء، ولا يتركوننا وشأنَنا.

أسلوبنا أمام السلوك العدوانيّ

سؤال: كيف ينبغي أن ندفع ما نواجهه من سلوك وحركات عدوانية؟

الجواب: سلوك المؤمن مهمٌّ جدًّا؛ فهو إنسان تأدّبَ على مائدة الأدب النبويّ، فلا يمكن أو لا يُتوقَّع ألبتة أن يخرج عن دائرة الأدب واللطف والنزاهة، فكلُّ سلوك يصدر عنه سيُعزى تلقائيًّا إلى الإسلام، فعليه أن يحافظ على سلوكه الذي صاغته التربية الإسلامية على نحو يليق بالمسلم دون تغيير قِيدَ أنملة حتى وإن كان في مواجهة أكفر القلوب وأقسى الحوادث، ولو تأمّلنا حياة سيدنا رسول الله ﷺ للاحظنا أنه لم يغيّر معاملته حتى مع أبي جهل؛ وعلى ذلك فإن أغضَبَنا شيء ما فليكن أسلوبنا إسلاميًّا. نعم، أغلظ القرآنُ الكريم القولَ للمشركين في بعض المواضع، والواقع أنّ هذا الأسلوب الشديد لم يكن موجهًا للأشخاص، بل لبعض الصفات والأفكار المعوَجّة.

أجل، لم يتعرّض القرآن الكريم لأحدٍ بغلظة قطُّ، وما أغلظ وهاجم الكفار والملحدين، بلِ الأفكارَ والمفاهيمَ الإلحادية التي مثلوها ويمثلونها؛ لذا لا يُتصوَّرُ أنْ يسلك طلابُ القرآن سلوكًا خلافَ ما جاء به القرآن.

ولنا أن نتناول هذه الحقيقة في الدول كما الأشخاص، فمثلًا قد نُغْلِظُ القول في حديثنا عن بعض الدول، إلا أنه ينبغي أن نتنبّه إلى أننا مضطرّون من اليوم لترك التشدُّد إذا كنّا نفكر مستقبلًا بمحاورتهم أو تعريفهم بعضَ الحقائق والأحاسيس والأفكار الدينية، فلنحدِّد جيّدًا أسلوب المواجهة؛ ويشترط في هذه المسألة كغيرها من المسائل الرجوع إلى المعايير والموازين المستخلصة من مقاصد القرآن الكريم والسنة النبوية.

تعالوا نشخص الموضوع بصورة أوضح بمثال من القرآن الكريم، يقول الله تعالى لموسى وهارون ﷺ وقد أرسلهما إلى فرعون: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾ (سُورَةُ طَهَ: ٢٠/٤٤)، أي عليكما أن تعبّرا لمن تخاطبانه بالكلمة الطيبة والقول الليّن وإن كان فرعونَ الذي أذلّ قومَهُ وسفك دماءهم سنين، لاحظوا: ربطَ القرآن الكريم تذكُّر المخاطب وخشيته من الله بـ "القول الليّن"، ومفهوم المخالفة هنا: "فإن قلتما له قولًا غليظًا فلن يتذكّر ولن يخشى"؛ فالرِّفقُ واللين شرطان لا غنى عنهما للتَّمكُّنِ من تبليغِ بعضِ الأشياء والحديث عنها أيًّا كان المخاطَب.

وهذا يعني أن على المسلم أن يكون دائمًا ليّن الجانب، لين الفِعال والمقال، لين القلب والوجدان؛ حتى يتسنى له أن يكون داعيًا حقًّا، وإلا فكلٌّ من لم يلِنْ قلبه ويذُبْ وتتمعدنْ أطواره في قالب الروح المحمدية فستصبح أحوالُه مصطنعةً مزيفة، وأمثال هؤلاء وإن تبسَّموا إلى أجلٍ محدود إلّا أنهم سرعان ما يَظهرون على حقيقتهم

إذا ما أوذوا، ويكشفون عن شخصيتهم الحقيقية، تُرى حَتّامَ يمكن أن تخدع يَرَقةٌ أهلَ الرصد والفلك؟!.

وفي ضوء هذه المعايير يمكن تفسير نزول المسيح عليه السلام واقتدائه بواحدٍ من أمة محمدٍ ﷺ بأن المسيح عليه السلام برأفته وعطفه سيجذب العدالةَ الكامنة في الروح المحمدية إلى بعدٍ آخر، أي سيبلغ بالروح المحمدية وعدالتِها واعتدالِها مرتبةً مِيزتها: "أن يكون الإنسان بلا يدٍ لمن ضربه، وبلا لسانٍ لمن شتمه، وبلا قلب يغضب ممن أغضبه"؛ وهذه المرتبة ربما يراها البعضُ إفراطًا في الرأفة والرحمة.

والإنسان الجَلْد في هذا العصر بديع الزمان سعيد النورسي مثالٌ مهمّ جدًّا في هذا الشأن، فهو يسعى دائمًا ليعثر على مدخل يتحدث منه عن حقيقة الإيمان بينما يجد في أهل الدنيا من يرونه جديرًا بأعتى عذابٍ وأشدِّه بأسًا، ورغم ذلك لا يضيق بهم ألبتة؛ وما أجمله من مثلٍ، ذاك الذي ضربه أصحاب الأخدود في هذا الموضوع! حفروا لهم الخنادق بينما هم يحاولون إشعارَ مَنْ يرمونهم فيها بإلهامات أرواحهم.

أجل، يستحيل تبليغُ أيّ شيء لأيّ إنسانٍ بالصياح والصراخ والحدّة والعنف، ناهيك عن إقناعه به؛ ربما استُخدم العنف طريقةً وأسلوبًا في فترة من التاريخ، أي في فترة البداوة الإنسانية، لكن الزمان نسخه، وأبطل حكمه؛ أما الآن فالدستور السائد هو "أن التغلب على المدنيين إنما يكون بالإقناع لا بالإكراه"[١٩]، ورجالُ المحبة

(١٩) بديع الزمان سعيد النُّورْسِي: سيرة ذاتية، الحياة الأولى، ص ١١٦.

فـي عصرنـا عليهـم أن يبلغوا المسـتوى الذي نحاول رسـم حدوده وأُطره، وأن يُكثِروا من التمرّن عليه باستمرار.

أجل، كما بيّنا آنفًا، سينزل المسيح عليه السلام بلا شكّ في آخر الزمان ليـؤدّي رسـالته الـمُهِمَّـة تلك وإنْ فـي أقصى أرجاء الآخرة، سـينزلُ ولكـن نزولـه هذا سـيكون نـزولًا علـى المعنـى والروح القـارَّة في شخصيتكم المعنوية.

نعم، سـينزلُ علـى هذا المعنى وتلـك الروح ليكـون قالَبًا لهما؛ وإن لم تكن تلك الروح فلا معنى لنزوله جسديًّا، فينبغي أن نعلم أن الانبعاث في آخر الزمان سـيتحقق بنفحات أبطال المحبة التي تَهَبُ الأبدانَ الحياةَ؛ فهم مَنْ يستطيـعُ تمثيلَ لينِ القلبِ والحالِ والمقال.

بين واقعنا ووقائع التاريخ المتكرّرة

سـؤال: إذا تأملنا واقعَنا في ضوء "تكرُّر الأحداث التاريخية" فهل سـيعرِض لنا مثلُ ما عرَضَ لرسولنا ﷺ من هجرة واختباء في الغار وما إلى ذلك؟

الجـواب: بدايـةً لا بـدَّ أن ننـوّهَ بشـيء: كأن الله ﷻ عَـرَضَ كلَّ مـا سـيحدث إلى يـوم القيامة بشـكلٍ مصغّرٍ في عصر السـعادة، فلو رجعـت الأمـة المحمديّـة إلى هـذا العصر لَعثـرتْ على سـبلٍ لحلّ المسـتجدّات المتناميـة والظروف المتغيّـرة والنـوازل؛ والحقيقة أنَّ موسوعات اجتهادات السلف الصالح تُعَدّ بشكلٍ ما تكثيرًا واستنساخًا لميكروفيلمات ذلك العصر.

وثمـة أمرٌ آخر مـن المفيـد أن نوضحه: إن الحـوادث التاريخية لا تتكـرّر عينها، بل مثلها؛ ومـن هنا يمكن القول: إنّ الماديين الذين ينتظرون أن تتكرّر الحوادث الغابرة عينها يعيشون في وهم وانخداع خطير جدًّا؛ ولعلّ ما يخدعهم هو أن تلك الحوادث تبدو أحيانًا كأنها تتكرّر بعينها، وهذا في الحقيقة يُعَدُّ مِنْ خلط الشاخصِ بظلّه.

إذًا يمكـن القول: إن أحداث الهجرة قد يقـع ما يشـبهها في فترةٍ أخرى؛ فنحن مثلًا نسـير منذ القدم في دربٍ كَذَاك، فنحن في حياتنا الخاصّة مهاجرون دائمًا طالما اجتنبنا المحارم كافّةً كما في الحديث النبوي الشريف: "**الْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَر مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**"(٢٠).

وكثيـر منّـا يهاجـرون فـرادى أو مـع أسـرتهم وفـق مـا تقتضيه خدمتهم هجرةً تشـبه الجهاد المادي؛ لا سيما أن انهيار الشيوعيّة في آسيا الوسطى أغذَّ السيرَ بالهجرة أكثر، ولهذه المسألة بُعدٌ آخر يتمثّل في الجهود المبذولة من أجل التعريف بقيم أمتنا في أوروبا وأمريكا وغيرها.

أريد هنا أن ألفت انتباهكم إلى قضية وهي: أن من شرط الهجرة أن تكـون لله فحسـب، وألّا تخالطهـا أيـة دعوى أو تشـوّف دنيوي؛ وتحقّـقُ أمـرٍ كهذا رهنٌ بأمورٍ منها: سـلامة جوانيّة المرء، واكتشـافُه حقيقـةَ نفسـه، وقـوةُ ارتباطه بـالله، ومراقبتـه له سـبحانه حيثما كان، وطاعتـه إيـاه، وذكره لـه على الدوام. نعـم، أرى أن علـى الناس أن يطلبـوا بمنازلهـم ودورهم وبلادهـم وأوطانهم -إن كانـوا لا محالة تاركيهـا- ثمنًا غاليًا جدًّا، وذلك بتحمّلهم هذه التضحيات في سـبيل غايات سامية، وأهداف عظيمة جدًّا، وقد أشار الله تعالى وكذا رسولُه الكريم ﷺ إلى هذه الغايات وتلك الأهداف؛ وهي: الله وجنته وجماله ورضاه وشفاعة رسوله ﷺ.

(٢٠) صحيح البخاري، الإيمان، ٤؛ سنن أبي داود، الجهاد، ٢.

أحد الصحابة الكرام خسر في زمنٍ هو أدعى للكسب رغم أنه تحمّل كسائرِ الصحابةِ المشقةَ نفسها والصعوبة عينها؛ ذلك أنه لم يُخلِص النية، ولم يحسنْ ضبط توازن قلبه على نحو ما سبق؛ وقال ﷺ في هذا الصحابي المهاجر من مكة إلى المدينة من أجل امرأة: "**مَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَو امْرأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**[٢١]" أي إنه عجز عن أن يسمو إلى مرتبة "المهاجر إلى الله ورسوله"، ومن هنا أيضًا يمكن القول: إن الأهم بإطلاق هو: توازن القلب ومراقبة الذات والمحاسبة وإخلاص النية.

أجل، إن الصحابة الكرام لم يُمنَّوا قطّ بأيّ شيءٍ نحو: "إن تحمّلْتُم تلك التضحيات العظيمة فسيكون لهجرتكم كذا وكذا من النتائج: ستتحدَّوْن العالم في عقد واحد، وستنتشرون في كذا وكذا من العالم وتصبحون ولاةً وحكامًا وإداريين..."؛ بل حُدِّد لهم الهدف فحسب، وأُمروا أن "يهاجروا إلى المدينة" وقد هاجروا رغم كلّ شيء؛ ثَبَتَ بهذا إذًا أنّ مصدر هذه القضية هو انضباط جوّانية حَمَلَتِها إلى الحياة، وقوةِ صلتهم بالله تعالى؛ وهذا الضرب من الناس يقولكما قال الشاعر الربّاني "يونس أمره":

لفحةٌ من جلالٍ زلزل أو نفحةٌ من جمالٍ نزلَ
في هذا وذا للروح صفَاء فمنك اللطف والقهر سَوَاء

وذلك دون الشعور بأي ضربٍ من التردد، أو الوقوع في أي نوع من الشبهات.

(٢١) صحيح البخاري، بدء الوحي، ١، النكاح، ٥؛ صحيح مسلم، الإمارة، ١٥٥.

وقد أسبغ الله تعالى علينا ثوب الهجرة كرّةً أخرى اليوم، فله تعالى على هذه النعمة التي قدّرها لنا ما لا يُحصَى مِن الحمد والثناء، وإذا كان الأمر كذلك فعلى من تسربلوا ثوبًا كهذا أن يضبطوا جوانيتهم جيّدًا إن كانوا يرجون ألا تذهبَ أعمالهم سُدًى.

ورد في السؤال ذكر الغار. أجل، إننا أفرادًا ومجتمعات نعيش اليوم هجرةً كتلك، وحياةً أشبه بحياة الغار يومئذٍ؛ إنهم ما كانوا بالأمس يتركون أي إنسان قطّ، وما كان لِيفلح أو ينجو منهم من يَظهر على الساحة ويجهر بمبادئ الإسلام، كان هذا بالأمس، واليوم أيضًا وإن بدا أنه أخفّ؛ كانوا يطاردونه سنين عددًا أيًّا كانت سنُّه أو حالته وكأنه أحد قطّاع الطرق، بل يحكمون عليه دون أن يأذنوا له بالتعبير عن أفكار تخدم الأمة والوطن والدين، فهذه الأمور تُعَدُّ مظاهرَ لحياة الغار مِنْ وجهٍ آخَر.

وختامًا نشير إلى وجهٍ آخر للمسألة: على كلِّ الرَّاغبين في خدمة هذه الأمة أن يعدّوا خططًا طويلة المدى، ويستعدوا من الآن لتحمل المسؤوليات والأعباء الثقيلة التي ستُلقى على عواتقهم في المستقبل؛ فلا بدّ من رسم خططٍ دائمة لتبليغ حقائق الدين حتى إلى أعداء الله ورسوله الذين يعادون من يخدمون الدين، بل يفعلون ما هو أكثر من العداء؛ إذ يريدون الحجر على حياة هؤلاء الدعاة وشلَّ حركتِهم. نعم، من الناس من يرى هذه الأمور سلبية صِرفًا، وأنا أرى خلاف ذلك، فإن هذه الخدمات خالدةٌ واعدة بمستقبل مشرقٍ لأمتنا؛ لذا عُدَّ هؤلاء إيجابيين وفعَّالين مطلقًا.

أجل، لقد انصرم الأمس... وأوشك اليوم أن ينقضي... أما الغد، فلا ندري سنُبَلَّغُه أم لا؛ لذا علينا أن نعدّ لحظتنا هذه هي عمرنا الحقيقي، ونستثمرها ولا نضيعها.